

## بيوت راشيا تراثٌ عابرٌ التاريخ؛ قيم المكان والرمز والوطنية

ما اجمل راشيا للمشرفين عليها من قلعتها التاريخية. تملأ الروابي ببيوتها التراثية التي تنتثر وتتسلل بين صخورها واشجارها باشكال فاتنة من السطوح الحمراء. بيوت هي بهجة البقاع الغربي وفخره. تتغلغل في وسط البلدة حول سوق اثري يقارنها ذوقا واتقاناً وفخامة، وتمنح المشهد العام بعداً جمالياً استثنائياً يتكامل مع رمزيتها الاستقلالية



بيوت راشيا تحافظ على تراثها.

سوق راشيا من اطول الاسواق التراثية اللبنانية. ينساب مستقيماً بطول 250 متراً من دون تعرجات. يضم على جانبه 60 محلاً تجارياً مسقوفاً بالقرميد الاحمر. يزدان بابواب خشبية موحدة الالوان والاشكال. تعلو بعض هذه المحلات بيوت مبنية بالحجر المقصوب، وتتدلى من شرفاتها احواض الزهور التي تضيء وحياً لارباب الفنون، وتسترسل عاطفة الزائر الى تلك المصابيح ذات الطابع القديم التي تثير السوق ليلاً، وتزيد من تكتيف المشهد التراثي بانوارها وظلالها. يعود تاريخ السوق الى القرن السابع عشر. تمّ رفصه عام 1927 في اشراف الفرنسيين من المعماري الشويري شكري عبد الاحد، واهتمت وزارة السياحة باعادة ترميمه وانارته عام 1997، وكان منذ نشأته عامراً مزدهراً بالصناعات

التي ذاع صيتها، ولم يبق من الحرفيين اليدويين الا اثنان، احدهما عصام المقت العامل في مجال صناعة وزخرفة الصيغة من الفضة، والآخر يوسف القضياني الذي يتقن صناعة الصوبيات، وانتشرت محلات بيع الخضّر والخضرات على حساب المنتجات الحرفية التي كادت تضمحل بشكل نهائي في الستينات من القرن الماضي.

منذ اعلان الجيزال غورو قيام دولة لبنان الكبير، بقيت راشيا في موقع الوسط بين سوريا ولبنان. اذ انتزعت من الاولى وظلت مهمشة من الثانية، فاغتنت بيروت بروافد سكانية نازحة منها ومن الاقضية المضمومة، حتى اضحت عاصمة تجارية كبيرة للبنان الجديد ولعدد من المناطق السورية، فكان لهذا المعطى تأثيره السلبي على اوضاع سوق راشيا الذي فقد جاذبيته للبلدات المجاورة له وبعض المناطق السورية والفلسطينية.

ارهق السوق كغيره من اسواق لبنان الكبير، جراء رفع التعرفة الجمركية على كل السلع، بعدما تكبدت فرنسا خسائر كبيرة من اندلاع الثورة السورية الكبرى عام 1925 التي دارت رحاها في قلعتها التاريخية، وذلك لسد جانب كبير من نفقاتها العسكرية. فبلغ الضيق الاقتصادي خلال فترة الربع الثاني من القرن العشرين اقصى مداها، وغدت الهجرة من راشيا جماعية نحو بقاع الدنيا، وراحت تخلو من حيويتها شيئاً فشيئاً، حتى ان عائلات باكملها انقرضت من البلدة. ما زاد الطين بلة ان النقد استبدل بالفرنك الفرنسي الورقي، في حين كانت العقوبات تفرض بالليلرات الذهبية فساهم هذا الاجراء في تفرغ تلك الارياف من مدخراتها الذهبية.

لكن راشيا لم تفقد مدخراتها التراثية المعمارية الفنية. من بين بيوتها القديمة يشع تراث روجي يؤرخ الى حقبة زمنية تواجد فيها ابناء طائفة السريان الكاثوليك في لبنان الذين بنوا منذ عام 1836 على انقاض اثار رومانية كنيستهم على اسم القديس مار موسى الحبشي، فشمخت بابها وجلال حتى غدت تحفة فنية شبيهة بالمظلة

المفتوحة المتسمة بالاقواس البارزة والعقود المعمارية المضلعة والدعائم الطائرة. وتزيد ايقونة شفيقها النادرة الوجود التي يعود تاريخها الى اكثر من 500 سنة من قيمتها التاريخية والفنية. يثري هذا التراث الكنسي ما تكتنزه كنيسة السيدة للروم الكاثوليك المبنية بالعقد الحجري منذ عام 1883 من ايقونات ثمينة، ويجسد مع كنائس القديس نيقولاوس والسيدة للروم الارثوذكس والمعالم الروحية لطائفة الموحدين الدروز ذخراً وطنياً للعيش معاً.

من شرفة قاعة الاستقلال، يأسر الزائر مشهد المنازل التراثية المتعاقبة بسطوحها القرميدية كأنها بيوت عاشقة بنيت على هندسة عاطفية، وتبهره خصوصيتها النادرة الجذابة العابقة بطيب التطلع الى كل فريد وساحر، خصوصاً عندما يرصد ما يعرف بـ"الطيارة" التي ترتفع فوق بعض منازلها وفق مواصفات هندسية معمارية تضيء جمالاً على البلدة، وتمهرها بطابع مميز قل نظيره في البلدات اللبنانية.

يغرق الزائر في جمال حارات القرميد الارجوانية المحشدة في راشيا جنباً الى جنب، والتي ترسم لوحة زاهية من 240 ارثاً في زمن الارث الضائع، كانت نتاج الحركة التجارية التي جلبت واردات لأولئك الميسورين الذين رفعوا بيوتاً متوجة بالقرميد الاحمر المتأثر بالطرازين الغربي والمحلي، وابتنوا منازل بواجهات ثلاثية القناطر او ثنائية المندلون، وباحجار صماء لكنها تحكي حكاية شعب مناضل وتحفر في وجدانه صوراً عن حقبة زمنية عامرة، حتى اضاف هذا الارث قيمة على قيم المكان ودلالاته التاريخية والوطنية.

لا تكمن اهمية هذه المنازل التراثية فقط بجمالية واجهاتها وسطوحها وقناطرها المتناسقة هندسياً، بل برحابة غرفها وسقوفها العالية وتعرضها للتهوية الدائمة، ما جعلها بهندستها المعمارية ابنية صحية بامتياز. مفارقة راشيا انها لا زالت من البلدات اللبنانية القليلة نسبياً التي تحافظ على كثافة هذه البيوت القرميدية التي لا تخشى عصفاً منذ مئة عام ونيف، وتحض بلدياتها المتعاقبة اهاليها على الحفاظ على هذا التراث العمراني، وتساهم البلدية الحالية برئاسة بسام دلال في ترميم القرميد المتصدع لكل البيوت القديمة، وتشجع على بناء بيوت حجرية من طبقتين مسقوفة بالقرميد جغرافية راشيا حتمت ان يكون لأهلها مسار

## هجرت الحرف التقليدية ولم يبق الا تصنيع الفضة والصوبيات

طبيعي تنموي يرتبط بالبلدات المحيطة بها، ويرتبط أيضاً بقطبين كبيرين هما العاصمتان التاريخيتان دمشق والقديس، بحسب ابن راشيا استاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية



قناطر ثلاثية.



طراز بناء تاريخي.

الدكتور منير مهنا الذي اشار في حوار مع "الامن العام" الى ان وجود راشيا على المسار الوسط بين تلك العاصمتين كان يعطيها حيوية هائلة، لكن مع ضم الاقضية الاربعة عام 1920 تحولت راشيا من منطقة وسطية الى منطقة طرفية، ومن مرحلة النهوض الى مرحلة التراجع الاقتصادي، وبدأت هجرة المسيحيين والدروز ونزوحهم في اتجاه بيروت والارجنتين واميركا والبرازيل واستراليا، الى درجة ان هناك صورة التقطت سنة 1937 خلال مؤتمر في ديترويت تجمع 415 مغترباً من مسيحي راشيا من عائلات آل المعلولي وسابا





المنزل الذي سكنه الجزائر غورو سنة 1919.



السوق محاطا بالابنية التراثية.



السوق الاثري.



الحرفي عصام المقت.



منزل الحاكم الفرنسي.



بيت آل ابوسمر.



بيت آل معلوي.



بيت آل داود.

الاعلى، او من عائدات اموال المهاجرين، ما ادى الى حركة عمرانية تمثلت في بناء البيوت ذات طابع جمالي مميز مستوحى من طراز العمارة في الريف الاوروبي وتحديدًا ايطاليا وجنوب فرنسا. لكن سنة 1925، بعد امتداد الثورة السورية الكبرى الى منطقة راشيا وحاصبيا ضد الوجود الفرنسي، كانت تلك السنة مفصلية بالنسبة الى البلدة التي دمرت بالكامل بعدما قصفت بيوتها بالمدافع والطائرات واحرقت المعارك 90% من بيوتها، وقد تم لاحقا التعويض من الدولة اللبنانية ايام الانتداب الفرنسي على بعض هذه البيوت التي اعيد عمرانها بين عامي 1926 و1927، وتكلفت في هذه الفترة بالقرميد الاحمر. كان نمط هندسة هذه البيوت يتوافق تماما مع طبيعة الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة والمتلائمة مع نمط السلطة الابوية. فتصميم المنزل يتمحور حول صالون كبير يؤلف المساحة المشتركة لاربع غرف تجاوره، ومطبخ مع حمام خارجي. وقد خصصت هذه الغرف لافراد الاسرة الذين يودون الزواج للاستقرار فيها قبل ان يمتلكوا بيوتهم الخاصة. كانت الاسرة التي تتمتع بمستوى اقتصادي اعلى تشيد بناء من طبقتين، "طيارة"، وقد تكون هذه الطبقة تحتوي على اثنين او ثلاث "طيارات" تبعا للحالة الاقتصادية. هناك نمط آخر من البيوت المبنية على طريقة "العقد" وبعضها يعود الى الحقبة الصليبية وما تلاها، على غرار كنيسة السيدة للروم الارثوذكس التي شيدت عام 1890 على انقاض دير قديم أنشئ في القرن الحادي عشر، وكذلك اقبية القلعة التاريخية، وبئر الضبعة ذات المنفعة العامة. يوجد مجموعة من البيوت مبنية على اساس العقد في بنيانها السفلي. اما اصحاب البيوت من الفقراء ومتوسطي الحال، فكانوا يؤمنون مساكنهم بسطوح من الطين على الطريقة اللبنانية التقليدية.

هل من عوامل اضافية ساهمت في تحقيق الازدهار العمراني؟  
يضاف الى هذا العامل الوجود المسيحي الارثوذكسي القوي جدا في تلك الحقبة، الذي كان يرعاه القيصر الروسي نقولا الثاني الذي اعطى توجيهاته لبناء المدرسة الروسية في البلدة. الوثائق تشير الى انه في عام 1907 بلغ عدد طلابها وطالباتها 127، وكانت المدرسة في اشراف "الجمعية الروسية - الفلسطينية" التي اولت اهتمامها بالمؤسسات الارثوذكسية في الاراضي المقدسة والجوار، وكانت راشيا مشمولة بهذا العطف الروسي باعتبارها عاصمة الارثوذكس في وادي التيم وقتئذ. من ناقل القول ان احدي كنائس البلدة المبنية عام 1890 حملت اسم القيصر "كنيسة مار نقولا"، تيمنا لتلك الرعاية. تجدر الاشارة الى ان الحياة الاجتماعية في تلك المرحلة اتسمت بالتشاركية بين الاكثية مسيحية واقلية درزية، وان راشيا كانت تعرف بـ"القصة" بمعنى ان البلدات والقرى المجاورة لها كانت تستهلك احتياجاتها من سوقها المزدهر الذي لم يكن سوقا للبلدة فقط، بل للمنطقة بأكملها.

لماذا هناك بيوت بقنطرة واحدة واخرى بقنطرتين او ثلاث؟  
لقد لاحظت، وهذا استنتاج شخصي، ان بيوت راشيا كانت تعكس معتقد اهل البيت وایمانهم. فالموحدون الدرور بنوا بيوتهم بقنطرة واحدة، والمسلمون السنة بقنطرتين، والمسيحيون بثلاث قناطر. الا ان جميع البيوت تتميز بفتحات لتأمين التهوية خصوصا في فصل الصيف.

وغيرهما. هناك ايضا امكنة سجلت هجرة اهل راشيا كما الحال في حارة "التيامنة" (نسبة الى وادي التيم) وساحة "الرياشنة" في دمشق.

في اي حقبة شيدت المنازل التراثية؟  
بنيت البيوت التراثية التي تنتشر في راشيا في الفترة الممتدة من نهاية حقبة العثمانيين وخلال مرحلة الانتداب الفرنسي على لبنان. وهي تعكس المستوى الاقتصادي الذي كان سائدا في البلدة التي كانت محطة اساسية لقوافل الحجاج والمسافرين بين الشام والقدس، وشكلت عاصمة وادي التيم الاعلى في وقت كانت حاصبيا عاصمته السفلى. فاعتنمت من هذا الموقع الاستراتيجي فوائد عدة انعكس ازدهارا على تجارتها، وجمالا على ابنتها، وانتعاشا في حركتها الثقافية والمسرحية، وتميزا في وعي ابناؤها.

ما هي الالفاظ الهندسية التي ميزت تلك البيوت التراثية؟  
بحكم هذه الحركة التجارية فما الاقتصاد المحلي نموا مذهلا سواء بالتجارة مع الشام او مع الجليل